ابن غنام مؤرخ وتاريخ[١]

للدكتور: محمد بن سعد الشويعر

يشعر المتتبع لتاريخ وسط الجزيرة العربية عامة، ونجد خاصة؛ أن هناك فجوة واسعة، وحلقة مفقودة، فيما بين القرن الخامس إلى القرن الحادي عشر الهجري، إذا استثنينا مكة والمدينة، حيث الحرمان الشريفان، وكونهما مأوى الأفئدة ومحط الأنظار.

ففي القرن الخامس وما قبله كانت هناك ومضات تاريخية توجد متناثرة في كتب التاريخ، وقد تأتي عرَضًا في سرد الأحداث التاريخية.

ذلك أن نجدًا مع ما فيها من أحداث تاريخية هامة، لم تحظ بمؤرخين يرصدون تلك الأحداث ويعتنون بتدوينها، لأن جل المؤرخين يبحثون عن الوقائع المهمة في حياة الحكام والساسة من جهة، ومن جهة أخرى فموطن هؤلاء الذين دونوا الأحداث التاريخية كان مقر الحكام، وموطن التجمع العلمي في الحواضر الإسلامية في دمشق، وبغداد، ومصر، والأندلس، والقيروان.

لم يكن في نجد من الأحداث المهمة في نظرهم ما يستوجب الإفراد بحديث مستقل، إذ لا تعدو تلك الأحداث أن تكون خبرًا جانبيًا من تولية والٍ، أو مشاركة بعض الأفراد من القبائل في الجيوش الإسلامية، أو انتقال قبيلة من مكان لآخر.

---

(١) مقال منشور بمجلة «الدارة»، (السنة الرابعة - العدد الأول - ربيع ثاني - ١٣٩٨هـ) - بتصرف يسير -.

ولذا كانت نجد حتى بدء ضعف الدولة العباسية تارة تنفرد بوالٍ في اليمامة وهجر، وأخرى ترتبط بوالي المدينة أو مكة، أو يهيمن عليها والي البصرة.

ولبُعدها عن قاعدة الخلافة العباسية، ضعفت الهيمنة العباسية عليها؛ نتيجة للتفكك الذي دب في دولة الإسلام الممثلة في الخلافة العباسية، ونشأ تبعًا لذلك دويلات متعددة، مثلما نشأ في أطراف الدولة العباسية في مصر، والمغرب، وخراسان وغيرها. وإن أقوى الدويلات التي نشأت في نجد:

١- دولة الأخيضريين بين عام ٢٥٣هـ وعام ٣١٧هـ.

٢- دولة القرامطة التي خلفت الأخيضريين بين عام ٣١٧هـ إلى عام ٤٧٠هـ.

ولعل نهاية القرن الخامس الهجري آخر ما يستطيع الباحث أن يجد فيه ذكرًا لنجد تاريخيًا وأحداثًا، حتى القرن الثاني عشر، عندما ظهر حدث عظيم في تاريخ نجد خاصة، والجزيرة العربية عامة، ولانستطيع أن نقول بأن هذه الفجوة بين هذين التاريخين عديمة الأحداث، ذلك أن الباحث لن ييأس أو يفقد الأمل في العثور على شذرات تضيء المعالم عن أشياء كنا نعتقدها في حكم المفقود، وتتمثل هذه الأشياء في وثائق عقارية أو تاريخية أو رحلات أو معلومات عابرة؛ كما جاء في سوابق ابن بشر، وأحداث ابن عيسى، ورحلة ناصر خسرو مثلًا.

ذلك الحدث العظيم هو ظهور الشيخ محمد بن عبدالوهاب رحمه الله بدعوته الإصلاحية المجددة، ومؤازرة الإمام محمد بن سعود لها، حتى استقامت دولة ذات كيان، فأصبحت هذه الديار محط الأنظار، ومأوى الأفئدة، واستقطبت اهتمام العالم، لأن هذه الدعوة الإصلاحية لم تكن حدثًا داخليًا يقتصر على أبناء الجزيرة وحدهم، ولكنه كان إيقاظًا فكريًا شد الأذهان، وجذب الأفئدة، وأشرأبت إليه الأعناق في العالم الإسلامي بأسره.

ابن غنام وتاريخه

ومؤرخنا في هذه الزاوية: حسين بن أبي بكر بن غنام، يرجع نسبه إلى قبيلة تميم، من أكبر القبائل وأوسعها انتشارًا في وسط الجزيرة، من سكان المبرز بالأحساء، وفيها ولد وتعلم، حيث أخذ العلم فيها عن مشايخ من أهلها، لم نجد أحدًا ذكر أسماءهم.

لم يحدد الباحثون عن حياة ابن غنام السنة التي ولد فيها؛ لأن عادة أبناء جيله عدم الاهتمام بتدوين السنة التي يولد فيها أي شخص، وكل ما أثبتوه هو تاريخ وفاته عام **١٢٢٥**هـ، وفي شهر ذي الحجة بالذات، هذا التاريخ الذي لم يختلف فيه أحد، ذلك لأن ابن بشر أوضح هذا التاريخ في أحداث عام **١٢٢٥**هـ عندما قال: «وفي شهر ذي الحجة من هذه السنة توفى الشيخ العلامة والحبر الفهامة حسين بن غنام الأحسائي»(١).

نشأ ابن غنام في الأحساء في بيت علم، وقد عُرف من أسرته عدة علماء كما قال ابن عبدالقادر في تحفة المستفيد(٢)، فهو أحسائي النشأة والولادة.

واستقر به المقام بالدرعية عندما توجه إليها في عهد الإمام عبدالعزيز بن محمد، في حياة الشيخ محمد بن عبدالوهاب - رحمهما الله-؛ كما قل بذلك عبدالرحمن بن عبداللطيف في كتابه: «مشاهير علماء نجد وغيرهم»(٣)، فهو نجدي الاستقرار والشهرة. ولكن ابن عبدالقادر يقول في تحفة المستفيد(٤) بأن

(١) عنوان المجد (١ : ١٤٤).
(٢) (٢/ ١٠٤).
(٣) (ص ١٨٥).
(٤) (٢/ ١٠٤).

ابن غنام قد نقله الإمام سعود بن عبدالعزيز إلى الدرعية في وقت نهضتها.

وفي نظري أن الرأي الأول أقرب للصواب؛ لأن ابن غنام عندما ألف تاريخه، كان يريد قصره على حياة الشيخ محمد بن عبدالوهاب رحمه الله، كما يتراءى من عنوانه: «روضة الأفكار والأفهام لمرتاد حال الشيخ الإمام محمد بن عبدالوهاب».

هذا بالنسبة للعنوان، أما بالنسبة للمحتوى فهو يدور في: حال الجزيرة والأحساء ونجد قبل ظهور الإمام رحمه الله بدعوته الإصلاحية، ثم يسير متتبعًا لهذه الحركة، ويطيل في الخاتمة التي هي عن وفاة الشيخ وأثرها النفسي والشعوري[(١)]، كما كرر خبر وفاته في أحداث عام ١٢٠٦هـ[(٢)].

وما القصائد التي أوردها في رثائه إلا تعبيرٌ عن شعور المؤلف تجاه هذا المصلح الكبير، ودوره العقائدي في نقل سكان الجزيرة خاصة من حياة الظلمة والضلال، والعزلة والانطواء، إلى حياة التفتح والنور، ومعرفة الدين الإسلامي واعتناقه عن بصيرة وفهم، كما يتجلى ذلك في إيقاظ الشعور الإسلامي لدى المسلمين عامة.

فارتباط ابن غنام تاريخيًا وشعوريًا بالشيخ محمد بن عبدالوهاب رحمه الله جعلني أرجح الرأي الأول؛ ذلك أن ابن غنام لابد وأن يكون لازم الشيخ في حياته في الدرعية، وهذه الملازمة لا تتأتى وابن غنام لم يقدم الدرعية إلا بعد ولاية الإمام سعود بن عبدالعزيز.

ومعروف بأن سعودًا لم يتسنم الأمر إلا بعد قتل والده في عام ١٢١٨هـ، وفي

---

(١) (١ : ٥٠ - ٦٠).
(٢) (٢ : ١٥٤).

هذا التاريخ يكون الشيخ محمد بن عبدالوهاب قد فارق الحياة إلى الدار الآخرة بمدة مقدارها اثنا عشر عامًا.

ولعل سؤالًا يتبادر للذهن: ألا يمكن أن يكون الإمام سعود قد استقدم ابن غنام في حياة والده؟

وهذا محتمل، إلا أن عبارة ابن عبدالقادر «الإمام سعود» تُبعد هذا الاحتمال؛ لأن المفهوم منها اعتلاؤه السلطة، فلو قال: «استقدمه الأمير سعود- أو عندما كان أميرًا» لانسجم مع القول، وفي هذه الحالة لا نحتاج إلى ترجيح.

وبالتالي؛ فإننا لا نستطيع تحديد السنة التي قدم فيها إلى الدرعية، إلا أن الحركة العلمية المزدهرة فيها، والشعور الديني العميق كانا خلف نزوحه من بلده الذي ولد فيه وتعلم، إلى موطن جديد يجذب ذوي المواهب، ومنهم ابن غنام.

والشيخ حمد الجاسر[1] يميل مع ابن عبدالقادر في ترجيحه أن ابن غنام لم يقدم الدرعية إلا بعد ولاية سعود بن عبدالعزيز بن محمد عام ١٢١٨هـ.

وبالتالي فإنني أميل إلى أن انتقاله إلى الدرعية كان في حدود عام ١٢٠٠هـ، للأسباب التالية:

١- أن عهد الإمام عبدالعزيز بن محمد الذي بدأ بوفاة والده محمد - رحمهما الله- عام ١١٧٩هـ؛ كان عهد تدعيم وبناء وتوسع في نشر الدعوة، ولم يبدأ الاستقرار العلمي إلا في حدود عام ١٢٠٠هـ، وإن كانت جذوره قد بدأت مع قيام دعوة الإصلاح التي بدأها الإمامان محمد بن سعود، ومحمد بن عبدالوهاب - رحمهما الله-.

(١) مجلة العرب، ج٩ مجلد ٥ .

٢- أن سعودًا في حدود هذا التاريخ قد اشتد عوده، وكان عضد والده، وقائد الغزوات، ولا يستبعد مع ذلك أن يكون هو الذي استقدم ابن غنام عندما كان أميرًا، ذلك أن الأسرة السعودية قد عُرفت منذ نشأة الدولة السعودية بحب العلم، واستقدام العلماء واحترامهم وإكرامهم.

٣- أن هذا التاريخ يتيح لابن غنام ملازمة الشيخ محمد بن عبدالوهاب ست سنوات قبل وفاته، وهي مدة كافية، كفيلة بأن تجعله يرتبط به شعوريًا؛ ليتجلى ذلك في مؤلفه التاريخي وقصائده فيه، والإشادة بمكانته.

٤- أما قصيدته التي قالها في قدوم الأمير سعود الأحساء بعد قتل «ثويني» عام ١٢١٢هـ، مهنئًا للأمير سعود ولأبيه عبدالعزيز[(١)]، فهي لا تدل قطعيًا بأن ابن غنام كان مقيمًا في الأحساء، ولم يرتحل للدرعية، بل من الأرجح أن يكون قد ارتبط بهذه الأسرة الكريمة قبل هذا التاريخ، وأنه شارك أهالي الأحساء في التعبير عن هذا الشعور، لأن «ثويني» هذا قد أقضَّ مضجعهم قبل قتله بسنوات؛ كما أبان عن ذلك تاريخه.

٥- أن أحد تلاميذه في العربية بعد انتقاله للدرعية كما حكاه ابن بشر[(٢)] حمد بن ناصر بن معمر، وهذا قد بعثه الإمام عبدالعزيز بن محمد في عام ١٢١١هـ إلى مكة ليناظر علماءها في مسائل العقيدة، فأظهر من البراعة وقوة الحجة ما كان موضع إعجاب علماء مكة، وهو لن يصل لهذا المستوى إلا بعد أن تمكن من اللغة العربية، وأنهى دراسته مع شيخه ابن غنام.

---

(١) تاريخه (٢/ ٢٣٧- ٢٤٢).

(٢) عنوان المجد (١ : ١٤٤).

مذهبه:

اختلف الباحثون في حياة هذا المؤرخ والأديب في المذهب الذي ينتمي إليه في الفروع:

١- فقال الشيخ عبدالرحمن بن قاسم في الدرر السنية[١]: إنه شافعي.

٢- وقال محمد بن عبدالقادر في تحفة المستفيد[٢]: إنه مالكي، كما تابعه في هذا القول كلٌّ من الشيخ حمد الجاسر في مجلة العرب[٣]، وعبدالرحمن بن عبداللطيف آل الشيخ في: «مشاهير علماء نجد وغيرهم»[٤]، والدكتور عبدالعزيز الخويطر في رسالته: «عثمان بن بشر منهجه ومصادره»[٥].

٣- وقال إسماعيل باشا في هَدْية العارفين[٦]: إنه حنبلي، وتابعه في ذلك عمر رضا كحالة في «معجم المؤلفين»[٧].

وعندما نريد ترجيح رأيٍ من هذه الآراء الثلاثة نجد أكثرها احتمالًا الرأي الثالث.

ذلك أن تلاميذ ابن غنام والعلماء المحيطين به، كلهم على مذهب الإمام أحمد بن حنبل، فهو جزء من هذا الكل، يتعلم ويُعلم ويناقش في مجتمع لم تتطور فيه الوسائل العلمية، وتتوفر معلوماتها، هذا من جهة، ومن أخرى فإن

---

(١) (٢/ ٢٤).
(٢) (٢: ١٠٤).
(٣) (ج١ / م٥).
(٤) (ص ١٨٥).
(٥) (ص ٧).
(٦) (١/ ٣٢٨).
(٧) (٣/ ٣١٧).

مذهب الإمام أحمد سائد في الأحساء قبل انتقال بن غنام منها، وهذا في نظري أمكن دليل على أنه حنبلي المذهب.

وبالنسبة للرأي الأول فلا نميل إليه لسببين:

١- أن أسرته مالكية المذهب؛ حيث نشأ وتعلم في حياته الأولى في الأحساء.

٢- أن الإمام محمد بن عبدالوهاب ﷺ الذي لازمه ابن غنام في حياته الثانية بالدرعية؛ كان يسير في الفروع على مذهب الإمام أحمد بن حنبل ﷺ.

ولذا نستبعد أن يكون ابن غنام شافعيًا؛ لأن اتجاهه العلمي في الأحساء والدرعية لم يهيئ له ذلك.

وأما القول بأنه مالكي فله ما يبرره؛ باعتبار أن مذهب أسرته مالكي، ومن جهة أخرى فإن مذهب الإمام مالك كان سائدًا في الأحساء.

ولكن تمذهب أسرته بالمالكية ليس دليلًا قاطعًا على مالكية ابن غنام، وحكمنا بذلك يوقعنا فيما يسميه المنطقيون: الدور والمصادرة، ذلك أننا حكمنا بمالكيته بناءً على مالكية أسرته، في حين أنه لا يثبت أنه مالكي المذهب إلا باعتناقه هو لمذهب الإمام مالك، سواءً عرف عنه ذلك، أو ألف فيه ودافع عن الفروع التي ينفرد بها الإمام مالك.

وهذا لا يستبين إلا بتتبع آثاره العلمية وآرائه فيها، ولم نجد من نقل شيئًا من ذلك عنه؛ ليُثبت مالكيته على هذا الأساس.

تأثره وتأثيره:

لقد تأثر ابن غنام بإمام الدعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب ﷺ، فكان مرتبطًا

به روحًا ومعنى، فسجل حياته وتابع دعوته، ورصد الوقائع الحربية والغزوات لنشر الدعوة، وما جرى بسببها من أحداث، خلال فترة الازدهار في الدولة السعودية الأولى، بزعامة ثلاثة من أئمتها هم: محمد بن سعود (ت ١١٧٩هـ)، وابنه عبدالعزيز (١١٣٧- ١٢١٨هـ)، وحفيده سعود بن عبدالعزيز بن محمد (١١٦٣- ١٢٢٩هـ).

ولم نجد في تاريخه ما يدل على أنه عول في النقل على غيره أو استفاد منه. وهذه عادة غير مستحسنة، فلعله استفاد من غيره، ولكنه تجاهل المنقول عنه، خاصة وأنه قد عُرف قبله بعض المؤرخين ممن وصلت إلينا أخبارهم؛ مثل:

أحمد بن بسام (ت ١٠٤٠هـ)، وأحمد المنقور (ت ١١٢٥هـ)، ومحمد بن ربيعة العوسجي (ت ١١٥٨هـ)، وعبدالله بن عضيب (ت ١١٦١هـ)، وإبراهيم بن أحمد بن يوسف (ت ١٢٠٦هـ) المتوفى في دمشق.

وعلى العموم؛ فإن أغلب الأحداث التاريخية كلها كانت وقائعها قريبة العهد من ابن غنام، ولا نحب أن نحمله أكثر مما يجب، فنقول إنه نقل هذه الأحداث من غيره ولكنه تجاهله، بل نقول: إن ابن غنام رصد هذه المعلومات من أحداث عصره وما هو سائد في مجتمعه.

فكان تاريخه يحدد معلومات قريبة العهد، فهو يبدؤه من عام ١١٥٨هـ وينتهي إلى عام ١٢١٢هـ. ولابد أنه تأثر بعلماء عصره المحيطين به، إلا أنه لم يستبن لنا شخصيات معينة أخذ عنها العلم، أو تأثر بها في الاتجاه، إلا ما رأيناه من اقتفائه لأثر الشيخ محمد بن عبدالوهاب، ذلك أن تاريخه أوسع مرجع لحياة الإمام محمد رحمه الله، أو ما نقله من رسائل ومسائل نسبها لأصحابها. وقد اعتبره عمر رضا كحاله في معجم المؤلفين[1] من تلاميذ الشيخ محمد بن عبدالوهاب.

---

(١) (٣/ ٣١٧).

أما عن تلاميذه الذين أخذوا عنه العربية في الدرعية؛ فإن ابن بشر، وهو أقرب المؤرخين لابن غنام، لم يذكر من تلاميذه الذين أخذوا عنه العربية في الدرعية - مع أنهم كثيرون - إلا: حمد بن ناصر بن معمر، وسليمان بن عبدالله بن محمد بن عبدالوهاب.

ولكننا نعتبر ابن غنام بتاريخه هذا أستاذ جيل: اقتفى أثره عدد كبير، أخذوا معلوماتهم التاريخية عنه.

وأول تلاميذه في هذا التخصص هو ابن بشر نفسه، إذ كان كتاب ابن غنام مصدرًا مهمًا في تاريخ الدولة السعودية الأولى وما واكبها من أحداث - وإن كان قد وقف عند عام ١٢١٢هـ - أيام عزها ومنعتها، بيد أنه توفي بعد هذا التاريخ بثلاث عشرة سنة. كما يُعتبر مصدرًا مهمًا لكل كاتب يبحث عن تاريخ نجد والجزيرة العربية في تلك الحقبة، أو يتتبع حياة الإمام الشيخ محمد بن عبدالوهاب.

ومن هذا نقول بأن إبراهيم بن عيسى (ت ١٣٤٣هـ) في تاريخه، وعبدالله، فلبى في كتابه: تاريخ نجد، وغيرهما من الباحثين حديثًا في حياة الشيخ محمد بن عبدالوهاب، أو تاريخ الدولة السعودية الأولى، قد استفادوا من ابن غنام، وعولوا في معلوماتهم عليه؛ فهو أول راصد لتاريخ نجد وأحداثها، لأن من سبقه لا يمتازون بالتتبع الموضوعي للمنطقة كاملة؛ كما هو منهج ابن غنام.

ولئن كان ابن غنام - وهذا هو المأخذ عليه من كل دارس لتاريخه - يعتمد على السجع الممل، وحشده الكلمات المترادفة التي ترسخ هذا السجع المتكلف، فإن ذلك لا يُنقص من قيمة كتابه كمرجع تاريخي لفترة من الزمن عاصرها وسجل أحداثها، ولعله في سجعه هذا، وبحكم علاقته باللغة العربية - لأنه كان أستاذًا لها في الدرعية - قد تأثر بالنثر في العصور الوسطى، إبان ركود

اللغة العربية، وركونها إلى السجع، والاحتفاء بالمحسنات البديعية.

تاريخه:

لقد أخرج الناشر لكتاب ابن غنام في طبعته الأولى عام ١٣٦٨هـ (عبدالمحسن أبابطين) هذا المؤلَّف في جزأيه تحت اسم «تاريخ نجد»، ولم يكن ابن غنام قد قصد هذه التسمية، إذ أن التسمية الحقيقية للكتاب: «روضة الأفكار والأفهام، لمرتاد حال الإمام»، وقصره على حياة الشيخ محمد ورسائله، وحالة نجد والأحساء، وما وقع فيهما من الشرك وغيره.

ثم أتبعه بكتاب آخر سماه: «الغزوات البيانية والفتوحات الربانية»، تعرض فيه لتاريخ الحوادث والغزوات التي واكبت الدعوة الإصلاحية وانتشارها وقيام الدولة السعودية الأولى، ووقف عند عام ١٢١٢هـ.

ولعل الناشر عندما أعطاه هذه التسمية: «تاريخ نجد»؛ أراد أن يضفي عليه طابعًا مميزًا،وأن يضم الكتابين تحت مسمىً واحد، وأن يشمل التسميات المختلفة، فهو يقول: «تاريخ نجد - المسمى: روضة الأفكار والأفهام، لمرتاد حال الإمام، وتعداد غزوات ذوي الإسلام»، فكلمة تاريخ نجد وحدها تكفي عن هذا الاسم الطويل، ثم إن كلمة «المسمى» تدل على أن الاسم الأول من إطلاق الناشر.

ولا يغرب عن بالنا أن الباحثين قد أطلقوا تسميات متعددة على هذا المؤلف:

١- فإسماعيل باشا في هَدْية العارفين[1] يقول عن ابن غنام: «صنف التاريخ العجيب سماه...» ولا يذكر الاسم.

---

(١) (١/ ٣٢٨).

٢- وابن عبدالقادر في تحفة المستفيد[١] يقول: «روضة الأفكار فيما كان في نجد من الأخبار».

٣- وابن قاسم في الدرر السنية[٢] يقول: «روضة الأفكار والأفهام لمرتاد حال الإمام الشيخ محمد بن عبدالوهاب، وهو تاريخ الإمام الشيخ حسين بن غنام الأحسائي».

٤- والزركلي يقول في الأعلام[٣]: «روضة الأفكار والأفهام، لمرتاد حال الإمام، وتعداد غزوات ذوي الإسلام».

٥- وعمر رضا كحالة يقول في معجم المؤلفين[٤]: «تصانيفه: تاريخ نجد، العقد الثمين في شرح أحاديث أصول الدين، روضة الأفكار والأفهام لمرتاد حال الإمام، وتعداد غزوات ذوي الإسلام». فهنا جعلهما كتابين وليس كتابًا واحدًا، وهذا لم يقله غيره.

وفي نظري أن (أبابطين) كناشر قد أحسن صُنعًا بهذه التسمية، فهي تسمية مختصرة تنبئ عن محتوى الكتاب.

وقد يكون الناشر استقاها مما تعارف عليه الناس، أو من مسمى تاريخ عثمان بن بشر: «عنوان المجد في تاريخ نجد».

ثم لعل عبدالله فلبي، قد استفاد منهما هذه التسمية عندما سمى مؤلفه عن تاريخ الدولة السعودية: «تاريخ نجد ودعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب السلفية».

---

(١) (٢/ ١٠٤).
(٢) (٢/ ٢٥).
(٣) (٢/ ٢٧٤).
(٤) (٣/ ٣١٧).

وعندما نستعرض كتاب ابن غنام فإن القارئ لا يجده كتابًا خالصًا للتاريخ، بل هو:

١- استعراض لحالة نجد والأحساء، وما وقع فيهما من الشرك وغيره قبل قيام الدعوة الإصلاحية على يد الإمامين محمد بن سعود، ومحمد بن عبدالوهاب - رحمهما الله -.

٢- بيان التوحيد وما يجب على كل مسلم، وقد استعرض في ذلك الأحاديث الصحيحة، وآراء بعض السلف؛ كابن تيمية، وأوضح الشرك الأصغر؛ كالحلف بغير الله، في استعراض مستفيض.

٣- رسائل وردود للشيخ محمد بن عبدالوهاب وغيره في الدفاع عن الدعوة، وتفنيد الآراء التي تعارضها، وتوضيح معالم الدين الإسلامي، والآراء الصحيحة في شأن القبور، وقصة الخضر وموسى عليهما السلام.

٤- حياة الشيخ محمد بن عبدالوهاب، ووفاته، وبعض ما قيل في رثائه من أشعار.

٥- استعرض الوقائع والغزوات من عام ١١٦١هـ إلى عام ١٢١٢هـ، كما ذكر السبب الذي حمله على ذلك، وذكر بعض الحوادث لثلاثة أعوام سبقت هذا التاريخ من عام ١١٥٨هـ.

٦- يتخلل موضوعاته بعض القصائد التي قالها حسب المناسبات، ويورد أبياتًا شعرية يسوقها كشواهد لما يتكلم عنه.

وهذه الطريقة التي سار عليها ابن غنام تختلف عن طريقة ابن بشر الذي قصر مؤلفه على الناحية التاريخية فقط، وهو ما سار عليه ابن عيسى فيما بعد وغيره.

ولا ملامة على ابن غنام في طريقته هذه، ذلك أن أسبقيته في التأليف،

وحماسه الديني، وثقافته العربية، هذه المسببات جعلت جوانبها المختلفة تؤثر في نفسيته، فيسجل أحاسيسه عنها في مؤلفه الذي قصد أن يكون تاريخيًا، وقد درج بعض الأولين قبله على هذه الطريقة، إذ كانت كتب التراث والتاريخ تحظى بكثير من ذلك.

أما عن طبعات هذا الكتاب ومخطوطاته، فقد تكفل كلٌ من الشيخ حمد الجاسر في مجلة العرب[(١)]، وعبدالرحمن بن عبدالطيف آل الشيخ في كتابه: «مشاهير علماء نجد وغيرهم»[(٢)] بإيضاح الطبعات، وما فيها من زيادات أو نقص.

ابن غنام أديبًا:

ظهر ابن غنام إبان التفتح الفكري في نجد والأحساء، ونشوء العصر الذهبي للأدب والعلم، فهيأه تطلعه العلمي، ونبوغه الفكري؛ إلى تبوء مكانة عالية، ألا وهي تدريس اللغة العربية لخيرة علماء الدرعية وأكابرها، فكانت له اليد الطولى كما قال ابن بشر، ويتمثل التراث الأدبي الذي تركه بن غنام نثرًا وشعرًا في:

أسلوبه المسجوع في مؤلفاته، وخاصة الكتاب الذي نحن بصدده، وحرصه على التعمق في المعاني اللفظية، والغوص على الكلمات التي تتلاءم مع سجعه، مدلًا بذلك على مستواه في هذا الجانب.

ومع أننا لم نجد له نثرًا فنيًا مستقلًا يمكن دراسته، وبيان منزلته الأدبية على ضوئه.. إلا أن الدكتور محمد الشامخ في كتابه «النثر الأدبي في المملكة العربية

---

(١) (ج٩ م٥).
(٢) (١٨٥ - ٢٠١).

السعودية ١٩٠٠ - ١٩٤٥م»[١]، قال: «لعل كتب التاريخ من أهم المؤلفات التي يمكن لدارس النثر الأدبي أن يجد فيها من النصوص ما يدل على مستوى الأسلوب الكتابي في هذه الحقبة، ذلك لأن هذه المؤلفات كانت تحرر حينئذٍ بأسلوب يشبه الأسلوب الأدبي، من حيث استخدام السجع وإطلاق العنان أحيانًا لسبحات الخيال والعواطف الذاتية».

ثم قوله بعد أن استعرض أنموذجًا لنثر ابن غنام في سرد الوقائع التاريخية ووصفها: «ومن الواضح أن ابن غنام لم يكتف هنا بتسجيل الأحداث التاريخية، بل أراد أن يصور الخواطر النفسية والصراع الإنساني، وإذا أباح لنفسه كذلك أن يفسر حوادث التاريخ تفسيرًا ذاتيًا، وأن يضيف إليها ما رأى أن من الممكن أن يقع حدوثه، فقد جاء أسلوبه التاريخي شبيهًا بالأسلوب الملحمي، وفي الحقيقة أن القارئ يكاد ينسى ما للحادثة من قيمة تاريخية، وينصرف إلى ما فيها من متعة قصصية، وقيمة أدبية، رغم ما التزمه الكاتب من سجع عاق سلاسة الرواية، وقلل من حيويتها، إلا أن أسلوبه قد تميز بالوضوح، واتسم بالقدرة على تصوير المواقف المتأزمة، والصراع النفسي».

فقد كان يقصد في نظري بيان منزلة ابن غنام النثرية، وأن منهجه التاريخي ما هو إلا سلوك منهجي في الأدب برز في طريقة متميزة، مع ثقافة عربية واسعة، وتصوير بديع للمواقف المتأزمة، بعبارات تعطي مدلولًا خاصًا.

وعندما استعرض الدكتور بكري شيخ أمين في كتابه «الحركة الأدبية في المملكة العربية السعودية» في الفصل الثاني: التأليف التاريخي - الأدبي[٢]،

---

(١) (ص ٣١ - ٣٣).
(٢) (ص ٦٠٩ - ٦٤٠).

تكلم عرضًا عن ابن غنام؛ كواحد من هؤلاء المؤرخين في عبارة مجملة لا تبني عن رأي خاص فيه.

أما الشعر؛ فإن ابن غنام قد أودع كتابه التاريخي بعضًا منه، كما عرف له أشعار أخرى متناثرة يقولها في مناسبات مختلفة، وهي وإن كانت لم تُستوعب في ديوان خاص به، فإنه جدير بالدراسة والجمع.

وأبرز ما يظهر للقارئ في شعر ابن غنام:

١- سعة الخيال، والعمق في الألفاظ والمعاني.

٢- اختيار المناسبات والمشاركة فيها.

٣- الوصف التصويري؛ كما يتضح ذلك في قصيدته الهائية[١]، بحيث يتجلى التعبير الملحمي عندما يصف الجيوش والوقائع النازلة على الأعداء، في تصوير معبر عن الحقيقة.

٤- شعوره الديني يتغلب أحيانًا على خياله الشاعري، فتراه لا يتوسع في خياله التصويري؛ لأن هاجسه الديني وشعوره الوجداني تحركا في نفسه، فانجذب إليهما.

٥- طول النفَس، مما يدل على شاعرية متمكنة، وخيال خصب، وثروة لغوية، كما يتراءى ذلك للقارئ من قصيدته الرائية في تهنئة الأمير سعود، والإمام عبدالعزيز - رحمهما الله - بعد قتل ثويني، فهي تبلغ مائة وثمانية عشر بيتًا.

٦- يودع كثيرًا من أشعاره معلومات تاريخية ودينية، من باب الاستشهاد والمقارنة.

---

(١) (٢/ ٧١ من تاريخه).

وعلى العموم فإن ابن غنام في شعره أمكن وأجزل منه في نثره، ولذا يبرز في نثره خيال الشاعر وأحاسيسه حينما يخاطب فئة معينة من الناس.

أخيرًا:

عندما أخذت هذا الكتاب نموذجًا لكتب التراث لدينا؛ فإنني لم آخذه:

١- لندرته، فهو كتاب مطبوع، «طُبع مرتين».

٢- ولا لأسلوبه التاريخي، واستقصائه للمعلومات، فهو يسلك طريق السجع الممل أحيانًا، ولم يستقصِ تاريخ نجد، سواءً منها الأحداث التي سبقته، وسبقت دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب، وقيام الدولة السعودية الأولى، أو جميع أحداث وأخبار نجد والجزيرة العربية في عصره هو.

ولكنني اخترته هنا ككتاب من كتب التراث العلمي لنجد والجزيرة العربية للأسباب التالية:

١- أنه يعتبر أهم مصدر يستند إليه الباحثون، وفي مقدمتهم ابن بشر، كمرجع للوقائع التي حدثت وصاحبت قيام الدعوة الإصلاحية على يد الإمامين: محمد بن سعود، ومحمد بن عبدالوهاب - رحمهما الله -.

٢- أنه من أهم المراجع التي أنارت الطريق للباحثين حديثًا في حياة الشيخ محمد بن عبدالوهاب، باعتبار المؤلف واحدًا من تلاميذه.

٣- أن ابن غنام بمؤلفه هذا يُعتبر أول من فتح باب التأليف التاريخي في نجد، وبدأ بذلك عهدًا مضيئًا انقشع عن ظلمة دامت قرابة ستة قرون.

ولذا؛ فإنه مهما حصل فيه من أخطاء، ومهما أخذه عليه بعض الدارسين والباحثين من مآخذ، فإنني أعتبرها حسنات، ذلك أن الفضل دائمًا للسابق، وأن

من يأتي بعده مسترشد برأيه، وإذا صح لنا أن نجعل الريادة التاريخية في نجد في شخص معين، فإن ابن غنام فيما وصل إليه علمي هو الرائد للتأليف التاريخي، رغم أنه لم يقصر كتابه على التاريخ. وأما المدونات التاريخية التي سبقت ابن غنام فما هي إلا نبذ تاريخية محدودة الوقائع والحوادث».

❑ ❑ ❑